شـ ة الـُعلِّ

دور المُعلِّم في التعليم هو الدور الأساسي، ومن غير النهوض به لا يمكن الحديث عن أي تقدم في التعليم؛ مهما أُنفق عليه من مال وهُيِّئ له من أسباب.

وقد خَرَّج التعليم منذ عشرات القرون علماء كبارًا دون توفر الكثير مما هو موجود الآن؛ لأن المُعلِّم كان موجودًا بعلمه وخلقه وسموه. عمل المُعلِّم في أدبيات التعليم الإسلامي عملٌ خطيرٌ وشامل، فهو مثقِّف ومربٍّ ومرشد ومبلِّغ وداعية ومشرف وداعٍ إلى الخير. والتعليم في بعض معانيه يشكل امتدادًا لما قام به الرسل ـعليهم الصلاة والسلامـ من هداية الخلق وتزكيتهم وإرشادهم؛ ولا عجب فالعلماء هم ورثة الأنبياء والحاملون للوائهم المقتفون لآثارهم.

ولا نستطيع معرفة فضل المُعلِّم على الوجه الصحيح إلا إذا أدركنا المسافة الفاصلة بين المثقف والأمي، وتلك المسافة هي من صناعة المُعلِّمين؛ ولذا فإن المُعلِّم يستحق كل الاحترام والتقدير والتشجيع. واحترامنا له هو في الحقيقة احترام للعلم الذي يحمله، وتقدير للمدنية، واعتراف بالسمو الإنساني الذي ينميه التعليم في نفوس الناشئة. وتاريخنا زاخر بالأقوال والمواقف التي تعبر عن ذلك، يقول الإمام الشافعي ـرحمه اللهـ: (قَدِمْتُ المدينة، فرأيت من مالك بن أنس ما رأيته من هيبته وإجلاله للعلم، فازددت لذلك أدبًا؛ حتى ربما أكون في مجلسه، فأريد أن أقلب الورقة في كتابي، فأقلبها قلبًا رقيقًا هيبة له لئلا يسمعها). وهذا الإمام مسلم المحدث الشهير يأتي إلى إمام المحدثين البخاري، ويقول له: (دعني أقبِّلُ رجلك يا أستاذ الأساتيذ، وسيد المحدثين، وطبيب الحديث وعلله!). وفينا إلى اليوم من يسمي أولاده بأسماء شيوخه، وهذا لا يكاد يوجد عند أي أمة من الأمم!

في زماننا هذا سرى في كثير من الأطفال والفتيان والشباب داء خطير، هو داء الاستخفاف والاستهانة بكل شيء، وصار الطعن في المُعلِّمين والمدرسين من الأشياء المنتشرة بين الطلاب على نحو واسع ودون أي رادع. وكثير من الآباء والأمهات يصدقون ما يقوله أبناؤهم وبناتهم في مُعلِّميهم ومُعلِّماتهن، ويبنون على ذلك بعض المواقف عوضًا عن تحذيرهم من هذا السلوك، ومحاولة التثبت في الأمور المهمة. لا ريب أن بعض المُعلِّمين يتصرفون تصرفات تثير الجدل بين الطلاب، أو تجعل التطاول عليهم سهلاً أو مقبولاً، لكن علينا أن نتذكر دائمًا أن المُعلِّم في مقام الوالد، وأنه مهما كان الشأن، فإنه يظل مُعلِّمًا، ويظل صاحب فضل يستوجب الشكر والعرفان. كما أنه ينبغي أن ندرك أن إسقاط المُعلِّمين من عيون طلابهم يحرمهم من نماذج يقتدون بهم، وهذا يعرضهم للضياع.

والآن لعلي أُوجز في المسائل الآتية ما ينبغي أن يتحلى به المُعلِّم من سمات، وما يحمله من ثقافة، بالإضافة إلى المهمات والمسؤوليات الملقاة على عاتقه:

ثقافة المُعلِّم:

العمل الأساسي للمُعلِّم هو نقل المعرفة من مصادرها ومراجعها إلى الطلاب بشكل منظم واحترافي؛ ولذا فإن (المعرفة) بالنسبة إليه هي مثل البضاعة بالنسبة إلى التاجر، ومثل القماش بالنسبة إلى الخياط، لكن مع وجود فارق جوهري هو أن المُعلِّم الذي يطور معارفه، ويوسع دائرة مفهوماته لا يفعل ذلك من أجل طلابه فحسب، وإنما يفعله قبل ذلك من أجل نمو ذاته؛ إذ إن من العسير أن نفصل بين تطوير الثقافة وتطوير الذات؛ فالمُعلِّم بحاجة إلى المعرفة الواسعة من أجل إثبات وجوده وتحقيق ذاته. وإن المُعلِّم الذي يخفق في الاستحواذ على الحد الأدنى من المعرفة التي يحتاجها في عمله؛ لا يخفق في أداء رسالته فحسب، ولكنه يفقد إلى جانب ذلك جزءًا من لياقته الاجتماعية والمهنية.

وهذه بعض الملاحظات حول ثقافة المُعلِّم:

1ـ عصرنا الذي نعيش فيه بات يزهّد في الحصول على المعرفة، فكثرة متطلبات الحياة أشغلت الناس عن تثقيف أنفسهم. ووجود أشخاص كثيرين حققوا نجاحات دنيوية واسعة دون تعمق في المعرفة؛ جعل الناس يعتقدون أن التفوق المالي والتألق الاجتماعي؛ لا يتوقفان بالضرورة على الانغماس في القراءة والاطلاع. لكن المُعلِّم يختلف عن باقي الناس؛ إذ إن امتلاكه للمعرفة الجيدة أحد متطلبات مهنة التدريس التي اختارها. ورفضه للتزود المستمر من المعرفة هو رفض للمهنة التي ندب نفسه للعمل فيها. وما من مهنة إلا ولها متطلبات، قد تكون في بعض الأحيان مزعجة؛ فالأخلاقية الطبية تحتم على الطبيب أن يتحلى بروح الجاهزية لإسعاف مرضاه في أي ساعة من ليل أو نهار، وعليه أن يقوم بذلك عن طيب خاطر. وفي إمكان المُعلِّم ألا ينظر إلى متطلبات المهنة على أنها أمور تقيد حياته، وتثقل كاهله، بل ينظر إليها على أنها محفزات على المزيد من الاستنارة، والمزيد من الارتقاء بالذات للعيش وفق مستويات أرقى.

سيجد كثير من المُعلِّمين ما يتخذونه حجة لتقاعسهم عن توسيع معارفهم وتجديدها، لكن ذلك لن يكون مقبولاً؛ حيث إن هناك ألوف المُعلِّمين الجيدين الذين يعيشون في ظروف مماثلة ـ يجدون الوقت للقراءة، والبحث والتأليف، وإلقاء المحاضرات، وإقامة بعض الدورات، والمشاركة في الأنشطة الخيرية والاجتماعية... ومهما يكن الأمر فإن القضية في النهاية ليست قضية تنفل أو تطوع، وإنما هي قضية التزام وقضية كرامة؛ إذ من الصعب أن يحافظ المُعلِّم على كرامته مع ضحالة معلوماته؛ كما أن من الصعب عليه أن يستمتع بمشاعر الرضا عن الذات؛ إذا لم يشعر أنه يؤدي واجبه المهني على نحو مقبول. إن الوقت يتوفر دائمًا للمزيد من طلب العلم حين يكون طلب العلم أولوية في حياتنا.

2ـ شبَّه أحد كبار التربويين المعرفة بالسمك، فكما أن السمك لا يصمد طويلاً حتى يفقد صلاحيته، فإن المعرفة كذلك، فالطلاب يستهلكون المعرفة، كما يستهلكون الطعام والثياب. وكما أن السمك يكون أشهى كلما كان طازجًا، فإن المعرفة الجديدة تظل ذات نكهة خاصة في حسّ الطلاب. وقد قال أحدهم: إن أجمل ما في المُعلِّم أن يلمع باستمرار، ولمعانه لا يأتي من أناقته، ولكن من حداثة معلوماته. ولن يستطيع المُعلِّم ذلك إلا من خلال المتابعة المستمرة للشأن الثقافي عن طريق قراءة الكتاب والمجلة والجريدة، وسماع وسائل الإعلام المختلفة. وتلك المتابعة ليست شرطًا لأداء مهمته التعليمية على الوجه المطلوب فحسب، ولكنها شرط أيضًا للقيام بوظيفته بوصفه مربيًا ومرشدًا.

3ـ كثير من المعارف والمعلومات الموجودة في الكتب المدرسية وأحيانًا الجامعية، يكتنفه الغموض والتحجر، فهي أشبه بالهياكل العظمية، لا حياة فيها ولا معنى. وقد يحار الطالب لماذا يدرسها، وما الذي سوف يستفيده منها. وهنا تأتي مهمة المُعلِّم الحصيف الذي من خلال ثقافته الواسعة يبث الحيوية في تلك المعلومات، ويجعلها ذات مغزى لدى الطلاب؛ فهو حين يدرّس مادة مثل مادة الفقه ـمثلاًـ يحدثهم عن نشأة ذلك العلم، وعن المؤلفات الأولى فيه، وعن المدارس الفقهية، ويكلفهم بكتابة بحوث عن تراجم بعض رجالها، ويوضح لهم مدى ارتباطه بعلم الحديث وعلم التفسير، كما يحدثهم عن شروط الاجتهاد، وآداب المفتي، وعن التقليد والتمذهب والتعصب المذهبي، وعن العزيمة والرخصة وتيسير الفقه ومدى حاجة الناس إليه في استقامة حياتهم، وما شابه ذلك... إن الطلاب يشعرون وهم يتعلمون على هذا النحو أنهم لا يدرسون أحكامًا فقهية متناثرة ومعزولة عن واقع الحياة، ولكنهم يشعرون أنهم يوسِّعون مداركهم، ويثرون خبراتهم في علوم التاريخ والحضارة والتراجم والاجتماع والجغرافيا...

وبذلك يقفون على وحدة المعرفة، وتتسع آفاقهم، وتتحول المادة من أجزاء معزولة يتم سردها إلى نوع من الاكتشاف المفعم بالحيوية.

4ـ المُعلِّم طبيب الفكر وطبيب المعرفة، وكما أنه لا بد للطبيب من أن يقدم نموذجًا في توفر شروط الصحة؛ كذلك لا بد للمُعلِّم أن يقدم نموذجًا في نقاء الفكر ورصانة المعرفة والثقافة؛ فهو في طروحاته ومقولاته وشروحاته يتوخى دائمًا أن يكون كلامه مؤصلاً لكونه قد أخذه من مراجع ومصادر معتمدة، ولكونه مدعمًا بالأدلة والبراهين. كما أن عليه أن يحذر من الوقوع في حبائل أهواء الذات، فيؤيد بعض الأقوال لا لاقتناعه بها، ولكن لأنها تدعم طروحات يتبناها، أو لأنها تؤيد مذهبًا يقلده أو يتبعه، أو لأنها تُعلي من شأن تخصصه والمواد التي يدرّسها لطلابه.

الثقافة الرصينة هي دائمًا ثقافة عقلانية، تبتعد عن تأثيرات العواطف والميول الشخصية. بعض المُعلِّمين يسوق قصصًا وأخبارًا غريبة من أجل جذب الطلاب إلى متابعته. وهذا أسلوب ضار بعقول الطلاب؛ لأن الغرائب تشوّه البنية العقلية لدى الطلاب، وتساعد على محو الفواصل القائمة في أذهانهم بين المعقول واللامعقول، والسهل والصعب. وانمحاء تلك الفواصل يحيل أي عقلية إلى عقلية خرافية. ومع علمنا بأن الموضوعية التامة في كل المواقف الفكرية أشبه بالمستحيل؛ إلا أن على كل واحد منا أن يجاهد نفسه ليتحلى بأكبر قدر ممكن منها في تقويمه وشرحه، وأن يحاول بناء أسس التفكير الموضوعي لدى طلابه أيضًا.

5ـ الثقافة أداة للتربية، وأداة للإصلاح، وأداة لتصور المشكلات وتحديد التحديات؛ إنها الوسيط الذي نستخدمه في كل أعمالنا الحضارية الكبرى. والذي أود أن أؤكد عليه هنا هو أن ما نتعلمه، ونَجْهَدُ في تحصيله من معارف،

يجب أن يستهدف على نحو جوهري خدمة مبادئنا، وخدمة الناس من حولنا. وعلينا أن نعي دائمًا أن الثقافة تفقد الكثير من قيمتها والكثير من وظائفها إذا أصبحت مقطوعة الصلة بالناس. والمُعلِّم على وجه أخص بحاجة إلى أن يثري ثقافته فيما يعود على طلابه بالنفع، فهو -مثلاً- بحاجة إلى أن يتقن فن التحفيز ومقاومة الإحباط، وكل ما يتصل بأسس النجاح وأخلاقياته ومستلزماته؛ وأن يكون لديه بعض الأفكار حول القلق والتوتر، وكيفية مساعدة الطالب على خفضهما. كما أنه بحاجة إلى أن يغني ثقافته في صعوبات التعلم التي كثيرًا ما تواجه الطلاب في المراحل الدراسية المختلفة. والساحة الثقافية تعج الآن بكتب الهندسة النفسية، وكتب النجاح، واستثمار الوقت، وإدارة الذات، والاتصال... وما شابه ذلك. وفي إمكان المُعلِّم أن يستفيد منها في معالجة مشكلات طلابه.

إن المدارس قد أخذت على عاتقها أن تخرج جيلاً صالحًا للمشاركة في الحياة العامة، وخدمة قضايا الأمة ومصالحها، وهذا لن يتم دون أن يُثقِّف المُعلِّمون أنفسهم على نحو جيد بثقافة تقوي إحساسهم ووعيهم بالشأن العام، وبحقوق الأغلبية المستضعفة من الناس الذين لا يجدون حولاً ولا طولاً في التعبير عنها.

إن أمة الإسلام تعاني من حزمة من المشكلات، مثل الفقر، والجهل، والتفكك السياسي، والتخلف التقني، والظلم الاجتماعي، وانخفاض سوية أداء الفرد المسلم، وقصور المفهومات الحضارية والاجتماعية... ولديها إلى جانب ذلك إمكانات ظاهرة وكامنة؛ أهمها المنهج الرباني الذي أكرمها الله به، والرؤية الحضارية الشاملة والمتوازنة، بالإضافة إلى الطاقة البشرية الهائلة.

والمُعلِّمون بحاجة إلى وعي كل ذلك في إطار منهجي واقعي؛ حتى يتمكنوا

من الأخذ بأيدي الناشئة إلى بر الأمان، وحتى يولّدوا لديهم هواجس الاهتمام بمستقبل أمة الإسلام وإصلاح شأنها.

6ـ تحتاج ثقافة المُعلِّم بعد كل ما ذكر إلى الاتزان والشمول. وفي ظني أن العناصر الأساسية التي ينبغي أن تشكل ثقافة المُعلِّم المسلم ثلاثة؛ هي: ثقافة التخصص الذي يقوم المُعلِّم بتدريسه، والثقافة الشرعية، والثقافة العامة. ومن الملاحظ أن معظم المُعلِّمين يعانون من خلل ما في هذا الشأن؛ مما يوجب تركيز الانتباه ولفت النظر إليه.

ليس هناك ما يسمى بالاختصاص الكامل، فالمرء كلما تعمق في معرفة تخصص ما وجد نفسه محتاجًا إلى معرفة بعض المعارف اللصيقة به، والبعيدة عنه، حتى قال أحد التربويين: إن المعرفة التامة بموضوع معين تعني معرفة جميع الأشياء. ولن يكون من مصلحة أي تخصص أن ينغلق على نفسه؛ لأن ذلك يحرمه من النمو الطبيعي، ويبعده عن أداء دوره الاجتماعي. ومع هذا فإننا نعترف أن التقدم العلمي والتقني مدين على نحو جوهري لأولئك المتخصصين تخصصات دقيقة، والذين أفنوا أعمارهم في معالجة قضية صغيرة جدًّا، لكن لا بد من التفريق بين المُعلِّم وبين الباحث الذي يهمه الوصول إلى اكتشاف محدد أو تطوير آلة أو أسلوب... فالمُعلِّم طبيب نفوس وعقول. والمادة التي يعمل عليها والتي بين يديه مادة خاصة جدًا؛ هي هذا الإنسان الغامض الحساس؛ ولذا فإن إتقان المُعلِّم لتخصصه لا يمكِّنه بمفرده من القيام بكل مهامه.

المُعلِّم المسلم بحاجة إلى ثقافة شرعية جيدة، فهو يقوم بتربية أبناء المسلمين، ويعمل على تخريج جيل مسلم بكل ما تعنيه الكلمة من معنى؛ ولذا فإنه بحاجة إلى أن يفهم روح الشريعة ومقاصدها العامة، كما أنه بحاجة إلى أن يعرف كمية

جيدة من الأحكام الشرعية المتعلقة بالعبادات والسلوك والعلاقات الاجتماعية، بالإضافة إلى بعض الآداب الإسلامية والسنن النبوية.

أما ثقافة المُعلِّم العامة؛ فينبغي أن تشمل شيئًا من المعرفة بوقائع التاريخ الخاصة بوطنه، وتلك التي تتحدث عن الحضارة الإسلامية في فترات ازدهارها، مع محاولة امتلاك رؤية تحليلية لأسباب خمود جذوتها وتوقفها عن العطاء. وذلك لن يغنيه عن فهم ما يجري في محيطه من أحداث على مختلف الصُعُد؛ لأن الأحداث الجارية، تسهم في تشكيل طموحات الشباب، وتثير تساؤلاتهم... ومن خلال اطِّلاعه عليها يمكنه القيام بالتوجيه الذي يحتاجونه.

المُعلِّم القدوة:

مهما تقدم الوعي الإنساني، وترسخت مكانة العلم في النفوس؛ فإن مصداقية العلم تظل تشكو من شيء من الهشاشة؛ ولا سيما العلوم الإنسانية؛ حيث إن وثوق الناس بالمعرفة كثيرًا ما يرتبط بمدى ثقتهم بالحاملين لها. وانطلاقًا من هذا فإن انسجام المُعلِّم مع طبيعة المعرفة التي يقدمها ومع طبيعة المهمة العظيمة التي ندب نفسه إليها ـ يعد شرطًا لا غنى عنه لنجاحه في عمله. ويبدو أن المُعلِّم لا يستطيع أن يتفلت من نظرة الطالب إليه على أنه قدوة، ولا من تعامله معه على أنه شخص يفترض فيه أنه أكثر منه وعيًا واستقامة واتزانًا. فكون المُعلِّم قدوة حالة تنبثق من صميم التعليم. وعندما يرفض المُعلِّم ذلك، أو يتأفف منه فإنه يقلل من فاعليته إلى حد كبير. وما ذلك إلا لأن التعليم ليس مهنة كباقي المهن، فالمُعلِّم ليس كالحدّاد أو النجار، والذي لا يهمنا منه سوى أن يقدم لنا خدمة أو قطعة أثاث جيدة مهما كان سلوكه الشخصي، ومهما كانت وضعيته العامة. إن ما يحتاجه الطلاب من مُعلِّميهم ليس ما يقولونه فحسب، وإنما ما يتمثلونه من قيم ومبادئ، وما يختطونه من منهج أيضًا.

وإذا كان مطلوبًا من كل مُعلِّم أن يكون قدوة لطلابه، فإن للمُعلِّم المسلم خصوصية في هذا الشأن؛ فهو لا يجسد قيمًا وضعية تعارف عليها أهل مجتمعه ـكما هو شأن المُعلِّم غير المسلمـ وإنما يمضي على خطى نبيه ـصلى الله عليه وسلمـ في التعليم والتبليغ والهداية والتزكية. وإذا كان الله ـتعالىـ أكرم رسله بالعصمة ليقدموا أرقى نموذج إنساني ممكن؛ فإن على المُعلِّم المسلم أن يجاهد نفسه ليقترب ما استطاع من ذلك النموذج. وإذا نظرنا في تاريخ التربية والتعليم وجدنا لدينا أدبيات كثيرة تحث المُعلِّم المسلم على التميز والحرص على العمل بما يعلم؛ يقول سفيان بن عيينة: (إذا كان نهاري نهار سفيه، وليلي ليل جاهل؛ فما أصنع بالعلم الذي كتبت؟)، وقال الحسن: (لا تكن ممن يجمع علم العلماء وطرائف الحكماء، ويجري في العمل مجرى السفهاء)، وقال أيضًا: (كان الرجل يطلب العلم، فلا يلبث أن يُرى ذلك في تَخَشُّعه وهديه ولسانه وبصره ويده). إنه صياغة جديدة وتامة للشخصية.

إن كل مفارقة بين أقوال المُعلِّم وبين اهتماماته وسلوكه؛ تشكل مصدر حيرة وإحباط لدى الطلاب، ومصدر استخفاف بالعلم الذي يتلقونه، واستخفاف بدوره في توجيه الحياة.

وهذه إشارات سريعة فيما يتعلق بهذه القضية الخطيرة:

1ـ تقدم المدارس لطلابها مناهج ومواد دراسية منظمة ومتسلسلة؛ ولذا فإنها تخاطب وعي الطالب وعقله الظاهر. كما أنها تقدم منهجًا آخر لا يقل أهمية لكنه منهج غير منظم وغير مكتوب؛ ولذا فإنه ينفذ إلى العقل الباطن؛ ليؤثر في القاعدة الأعمق لسلوك الطلاب. إنه المنهج الغامض المختبئ الذي يشكل البيئة الروحية والوجدانية والأخلاقية للحياة التعليمية. هذا المنهج يتجلى في كل حركة يتحركها المدرسون وإدارة المدرسة وموظفوها، إنه يتجلى في طريقة

تعامل المدرسين مع بعضهم ومع طلابهم، ويُلمَح في طريقة مكافأة المُعلِّم للطالب المتفوق، وفي طريقة معاقبته للطالب المسيء. يُلمَح في طريقة تعليقه على الأخطاء التي يقع فيها الطلاب، وفي تعليقه على الأحداث الجارية، وفي ملاحظاته الخاصة على الأزمات التي قد تقع فيها المدرسة...

إن سلوك المُعلِّم القدوة يشكل أداة انسجام وتلاؤم بين المنهج المنظم الظاهر وبين المنهج المستتر؛ حيث يصبح ما يقرؤه الطالب في الكتب المدرسية عبارة عن أدلة وإرشادات نظرية لجوهر الحياة الطيبة الفاضلة، ويصبح المنهج المستتر عبارة عن بيان عملي تنفيذي لذلك الجوهر. ومن المؤسف أن أعدادًا غير قليلة من المُعلِّمين لا يأبهون بهذه المسألة؛ فتراهم وكأنهم قد أخذوا على عاتقهم أن يبرهنوا على قدرة الإنسان على الجمع بين السمو والتفاهة في آن واحد؛ حيث إن ما يقولونه داخل الفصول الدراسية يُعَدّ شيئًا رائعًا. أما اهتماماتهم وأحاديثهم في حصص الفراغ، وأسلوبهم في الحديث خارج المدرسة... فإنها لا تدل إلا على أن أصحابها أشبه بالعامة؛ حيث ينعدم الإحساس بالقيادة والريادة والمسؤولية التربوية!

المُعلِّم الذي لا يصلي، ولا يهتم بشعائر الإسلام، وذلك الذي يدخِّن، والذي يضع الدرجات لطلابه دون تصحيح جيد لأوراق الإجابة، والذي يسب طلابه ويعيِّرهم ببعض الأشياء، والمُعلِّم الذي همه مديح نفسه، والذي يستخدم الطلاب لقضاء حوائجه الشخصية... هؤلاء المُعلِّمون لا يقال فيهم: إنهم لا يصلحون أن يكونوا قدوات لطلابهم فحسب، بل إنهم يمارسون دورًا تخريبيًّا؛ إذ يسمِّمون الحياة الفاضلة التي يجب أن يجدها الطلاب في المؤسسات التعليمية، كما أنهم يشجعون طلابهم بطريقة خفية على الانحطاط الخلقي والسلوكي، ويساعدونهم على تبخير ما بقي من هيبة واحترام للعلم وأهله!

2ـ مما يساعد الواحد منا على الارتقاء بذاته أن يتخذ مِن بعض مَن علَّمه مثلاً أعلى يقتدي به. ومع أنه ما من مُعلِّم إلا ويمكن أن يكون لنا بعض الملاحظات على جانب من جوانب شخصيته؛ إلا أننا نشعر أن بعض من علّمنا يتسم بسمات فائقة تجذبنا نحوه. وأعتقد أن اكتشاف تلك السمات يسبق الاقتداء، فنحن من خلال التأمل نستطيع أن نقف على أفضل ما كان يحمله المُعلِّم الفلاني والمُعلِّم الفلاني من صفات، ثم نحاول أن نستلهم التصرفات التي كانت تجسِّد تلك السمات. ولنضرب على ذلك مثالين:

أ ـ إذا وجدتُ أن أفضل سمة لدى أستاذي الفلاني هي حسن التعامل مع الطلاب؛ حاولتُ أن أكتشف نوعية التصرفات التي جعلته في نظري كذلك، ثم أحاول أن أقوم بها. وربما وجدت منها: اللطف في الخطاب، الصفح عن المسيء، السؤال عن حال الطالب المتعثر في دراسته، السؤال عن أسباب غياب أحد الطلاب، سعة الصدر، إفساح وقت للإجابة عن تساؤلات الطلاب، مداعبة بعض الطلاب، مساعدة الفقير منهم... إلخ.

ب ـ وجدت أن أعظم صفة تجذبني نحو أستاذي الفلاني؛ هي تواضعه وإنكاره لذاته. وهنا عليّ أن أحاول العثور على التصرفات التي كان يتجلى فيها ذلك، وحينئذ فإني ربما وجدت منها: عدم مديحه لذاته، ونقده أحيانًا لها، واعترافه بالخطأ، والثناء على الطالب المتميز، والابتداء بإلقاء السلام على طلابه وزملائه...

إن المُعلِّمين الجدد هم على نحو خاص في أمسّ الحاجة إلى اتخاذ مَثَل أعلى من أساتذتهم الذين تخرجوا من تحت أيديهم منذ عهد قريب؛ وهذا يريحهم من عناء التفكير والبحث عن التصرف المناسب في كل موقف. كما أنه بالإضافة

إلى ذلك يشعرهم بأنهم يسيرون في الطريق الصحيح الذي شقه بعض أساتذتهم من قبلهم. إني آمل أن نجرب هذه الطريقة، وأن نُغْنيَها ونطورها إن استطعنا.

3ـ معرفة الصغار بالصواب والخطأ محدودة، وتعلمهم لهما من خلال المناهج أمر ليس باليسير؛ لأن فهم القيم والمبادئ واستيعابها عن طريق القراءة والدراسة يظل ناقصًا وقاصرًا؛ بسبب كون اللغة ناقلاً غير كفء وغير شفاف. أكثر ما يظهر ذلك عندما نستخدمها في المسائل التجريدية؛ ولذا فإن عقول الصغار تظل مملوءة بالضبابية والغموض مهما قرؤوا عن الأخلاق الحسنة والسيئة. وهذا يجعلهم يعوِّلون في فهمها على ما يشاهدونه من سلوكيات الكبار وتصرفاتهم في كل ما يحتاجه نموهم وانتقالهم إلى عالم الكبار.

ومع أن الأبوين في المترل مطالبان ـمن الناحية المنطقيةـ بأكثر مما يطالَب به المُعلِّم في هذا الشأن، إلا أن الواقع يقول غير هذا؛ حيث إن معظم الأسر الإسلامية لم تمر بأي تأهيل خاص للقيام بوظيفتها التربوية، على خلاف ما عليه حال المُعلِّمين والمُعلِّمات.

ومن وجه آخر فإن إعجاب الطالب بأستاذه يفوق في الغالب إعجابه بأبيه ـ وهو غير الحب وغير الاحترام ـ، وذلك يعود إلى أنه يرى أباه في كل أحواله، فيشاهد منه ما يسر، وما يسوء، وما يصلح للاقتداء، وما لا يصلح؛ لكنه لا يرى أستاذه إلا في أفضل أحواله.

وهذا كله يلقي على المُعلِّمين والأساتذة في دُور التعليم مسؤولية خاصة؛ حيث لا يصح أن تقتصر المهمة المنوطة بهم على تقديم بعض المعارف وبعض التدريبات، وإنما تتعداها إلى تعليم أساليب الحياة على المستوى الشخصي وعلى المستوى الاجتماعي.

وأظن أن من أهم ما يحتاج فيه الصغار إلى رؤية نماذج إنسانية جيدة الآتي:

أـ الموقف النفسي الأساسي حيال المسائل الكبرى والمهمة؛ مثل الخضوع لله ـتعالى ـ، وتكييف الاتجاه وفق هدي الشريعة الغراء، بالإضافة إلى بعض المسائل الأخرى ذات الصلة بالحياة العامة، مثل النجاح والإخفاق، والإنجاز والعمل، والتعليم والتعلم، وأوقات الفراغ، وقضايا العنصرية والعرقية والقبلية، وما شاكل ذلك؛ حيث إن على المُعلِّم أن يقدم دائمًا الموقف النفسي الإيجابي المنفتح والفاعل والموضوعي من كل هذه المسائل؛ مهتديًا بالأصول والآداب الشرعية، وبحصيلة الخبرات الإنسانية المتراكمة.

ب ـ استعمال اللغة بوصفها أداة للتفكير، وبوصفها ناقلاً للأفكار والمشاعر؛ فالطالب يتعلم من أساتذته الدقة في استخدام الألفاظ، كما يتعلم اختيار الكلمات المعبرة واللطيفة والملائمة للظرف والموقف الذي يمر به. إن الكلمات التي يمكن استخدامها للتعبير عن الذات كثيرة لكن بعضها فقط هو الذي يكتسي حلة الذوق واللطف والكياسة. وثمة فرق كبير بين المُعلِّم الذي يكثر أثناء كلامه من قوله: شكرًا وعفوًا، ومن فضلك، وإذا سمحت، وبين الذي يقول: يا ولد، ويا كسول، ويا مهمل، ويا عديم التربية...

جـ الأسلوب الذي يؤدي به الإنسان عمله اليومي، فالطالب يتعلم من أساتذته هيئة الدخول إلى الفصل والخروج منه، ومدى التزامه بمواعيد الحضور للدروس والمحاضرات والانصراف منها، كما يتعلم كيفية محاورته مع الطلاب.

د ـ اللباس والمظهر، وهما الامتداد المادي للذات، والعاكس المهم لكثير من كوامن الشخصية وخصائصها. ومن المهم أن ينسجم مظهر الأستاذ مع المنهج الإسلامي الذي يدرسه للطلاب، كما أن من المهم أن يقدم لباس الأستاذ

وسيارته وكل ما يتصل به إحساسًا بالنظافة والترتيب والاهتمام، من غير إسراف ولا مخيلة.

هـــ ـ الموقف من الأخطاء التي تقع في البيئة المدرسية، والتعامل الحكيم معها؛ حيث إن على المُعلِّم أن يمتلك الشجاعة الأدبية في التراجع عن الخطأ العلمي، والاعتذار عن الخطأ الشخصي. أما أخطاء الزملاء والطلاب، فيتعامل معها على أنها أشياء طبيعية، فلا يضخمها، ولا يبالغ في تصويرها، بالإضافة إلى إبداء القدرة على استيعابها ومقابلتها بالصفح والإصلاح. ومن الواضح أن مثل هذا السلوك قد يكون سهلاً إذا كانت أخطاء الآخرين قليلة، أو كانت تقع في ظروف معتادة؛ لكن يختلف الأمر عند تكرار الخطأ، كما يختلف حين يكون المُعلِّم مجهَدًا أو واقعًا تحت ضغوط نفسية؛ حيث تكون مجاهدة النفس آنذاك أكثر إلحاحًا.

و ـ طريقة التفكير والمحاكمة العقلية للأشياء والأحداث. ومن المهم ـ كما ذكرنا ـ مقاومة أهواء الذات من التعصب والتحيز والمبالغة والاستخفاف بالآخرين، والغلو في إضفاء الأهمية على بعض الأمور. وفي تصوري أن المُعلِّمين يستطيعون من خلال الانفتاح والمصارحة والتناصح والتعاون على البر والتقوى أن يحسِّنوا البيئة الأخلاقية، وأن يرفعوا من سوية بعضهم بعضًا في كل المجالات؛ وبذلك يستطيعون تقديم نماذج متقدمة في الخير والرقي والتقدم؛ مما ينعكس على الحياة عامة وعلى الحياة التعليمية خاصة.

المُعلِّم مربٍّ:

كما تفرض طبيعة التعليم على المُعلِّم أن يكون قدوة؛ تفرض عليه كذلك أن يكون مربيًا. والحقيقة أن الهدف الجوهري الذي تُبنى من أجله المؤسسات التعليمية هو (التربية). والتعليم ما هو إلا وسيلة تستخدمها تلك المؤسسات؛

حيث إن المقصود الأكبر هو تنمية شخصية الطالب بكل جوانبها: العقلية والعاطفية والثقافية والاجتماعية. وهذا هو معنى التربية.

ومن المؤسف أننا نشعر على نحو متزايد أن المُعلِّمين باتوا ينشغلون بالوسيلة عن الهدف، بل ربما صار هناك من يجادل، ويتساءل: هل على المُعلِّم أن يكون مربيًا؟ وهل التربية من مهمات المدارس أو من مهمات البيوت؟ إن هذه الوضعية جعلت كثيرًا من المُعلِّمين لا يهتمون بموضوع التربية، ولا يهتمون بملاحظة انعكاسات جهودهم التعليمية على شخصيات الذين يعلمونهم. وعلامة ذلك أننا أَوْكَلْنَا إلى الامتحانات على نحو كلي لتقيس لنا مدى التقدم الذي ولّده التعلم، وهو معرفي محض. والأسوأ من هذا وذاك أن كثيرًا من المُعلِّمين قد بدؤوا يتخلون عن المشاعر والأخلاقيات والسلوكيات التي يفرضها قيامهم بالدور التربوي. وهذا في تصوري سيؤثر سلبًا أيضًا على دورهم التعليمي.

حتى ينجح المُعلِّم في أن يكون مربيًا فإن عليه أن يتمثل شخصية (الأب الواعي)، ويحاول أن يتصرف مع طلابه، كما يتصرف الأب مع أبنائه. وحتى ينجح مثل هذا التقليد؛ فإن على المُعلِّمين أن يقوموا بالآتي:

1ـ النظر إلى ما يصدر عن الطالب من تصرفات خاطئة على أنها نتيجة عدم نضجه وعدم فهمه لقوانين الحياة، وليس على أنها صادرة عن خبث وسوء نية. وهذه النظرة تمنح المُعلِّم سعة في الصدر، وتزوده بطاقة كبيرة على التحمل. وقد حدث منذ عهد غير بعيد أن دخل أحد الأساتذة الجامعيين إلى قاعة التدريس، وكان الجو مشحونًا بسبب بعض الأحداث التي تمر بها البلاد. وتحدث الأستاذ قبل أن يبدأ محاضرته عن تلك الأحداث؛ مما أدى إلى انقسام الطلاب بين موافق للأستاذ ومخالف له. وفجأة وفي لحظة سادها الهدوء قام أحد الطلاب، وصرخ في وجه الأستاذ قائلاً: (أنت معتوه!). ونتيجة لذلك ساد القاعة توتر شديد،

ووقف الطلاب إلى جانب الأستاذ؛ لأنه أستاذهم، ولأنه صاحب سلطة؛ ولأن الطالب لم يكن على حق فيما قال. وكان في استطاعة الأستاذ أن يأمر الطالب بالخروج من القاعة، ولو فعل ذلك لحظي بمساندة الطلاب. ولكنه قال للطالب: (أنت على حق). وبعد فترة صمت أضاف المُعلِّم قائلاً: (لأنك تعتقد أنني معتوه). وسرعان ما أخذ الطالب يبكي بدمع غزير. وهنا صرف الأستاذ الطلاب من القاعة، ثم دنا من الطالب ليقول له: إن ما فعلته لم يكن صائبًا. وبعد ذلك ظل الطالب سنوات يحدِّث الناس عن ذلك الأستاذ، وكان يقول: إن موقفه مثَّل لي نقطة تحوُّل من الظلام إلى النور! إنه الكرم الذاتي الذي لا يستطيع الإنسان أن يقابله بغير الشكر والعرفان.

2ـ لدى الأبوين درجة عالية من الشفافية نحو أوضاع ابنهما، إنهما يحسّان به ولو لم تتوفر لديهما معلومات عنه. وهكذا المُعلِّم المربي يقرأ في عيون طلابه ووجوههم وحركاتهم الهموم والمشكلات التي تؤرقهم وتعكر صفوهم. إنه يصل إلى شيء ما على الرغم من قلة المعلومات والتفاصيل التي في حوزته. والذي يجعله كذلك هو عطفه وشفقته على طلابه، واهتمامه بنجاحهم وتقدمهم. وهذا ما يجعله أيضًا يعثر لهم على مخرج من أزماتهم وضائقاتهم؛ حيث يشعرون أنه لا مخرج.

3ـ المُعلِّم الجيد مثل الأب يعد نجاح طالبه نجاحًا له، ولا يجد أي حرج في تفوق طلابه، لأن ذلك في صحائف من علموهم. ولذا فإن المُعلِّم يدفع طلابه دائمًا نحو الأمام، إنه لا يستطيع التخلي عن النصح والتوجيه والإرشاد، وهو مع ذلك يبث روح الأمل والرجاء في نفوس من يعلمهم كلما وجد إلى ذلك سبيلاً. وأبناؤنا بأمسِّ الحاجة اليوم إلى هذا النوع من المُعلِّمين؛ حيث يسود الإحباط واليأس في كثير من الأوساط، وحيث يشعر كثير من الشباب بضغوط نفسية ومعيشية شديدة.

ومن المؤسف أن بعض المُعلِّمين صار يشعر بأن نصحه وإرشاده لطلابه يتنافى مع احترام استقلالهم وحرياتهم الشخصية؛ مما جعله يصرف النظر عنهم. وهذا شعور خاطئ؛ فالمُعلِّم ليس كباقي الناس، إنه أشبه بالأب، ولا يستطيع الأب أن يحجم عن توجيه أبنائه خوفًا من إقحام نفسه في شؤونهم الخاصة. من أجل مواجهة الإحباط ومساعدة الطلاب على بلوغ الذروة؛ علينا ألا نبخل عليهم بكل ما يشعرهم بقيمتهم وقدراتهم وأهليتهم للنجاح، ورُبّ كلمة تشجيع وتحفيز غيرت مسار طالب، أو بعثت طاقة كامنة، أو داوت جرحًا غائرًا!

المُعلِّم مجدد معرفة:

خبرات الشعوب مختزنة في الكتب التي كتبتها أجيالها على مدار التاريخ. وتلك الخبرات تكتسب أهمية خاصة بالنسبة إلينا نحن المسلمين، إنها تشكل الجذور العميقة لوجودنا الثقافي والحضاري، ولكن تطور اللغة واختلاف الذائقة الثقافية لدى الأجيال الجديدة؛ تجعل الاستفادة من الكتب والخبرات التراثية محدودة؛ حيث إنها تبدو باهتة وغير عملية، وهنا تظهر براعة المُعلِّمين الأكفاء في إعادة صياغة اللغة التي يستخدمونها في التعليم حتى تلائم الذائقة الثقافية الجديدة.

وهذا التجديد في التعبير عن المبادئ والمفهومات التراثية، لا يساعد الطلاب على استيعاب إنجازات السلف فحسب، إنما يساعدهم أيضًا على توسيع مدى الرؤية والإحساس بالتجذر واتصال الأجيال ووحدة المعرفة.

إن كثيرًا من شبابنا يشعرون بالغربة والوحشة اليوم نتيجة شعورهم بأن أمة الإسلام تعيش على هامش العالم، ونتيجة إحساس كثير منهم بعدم صلاحية المعارف القديمة لتحسين الحياة الحاضرة، فصاروا حائرين بين ماضٍ لا يعرفون

كيف ينتمون إليه وكيف يستفيدون منه، وبين حاضر لا يجدون القدرة على تكييفه وتطويعه والتأثير فيه!

تجديد المعرفة قد يكون بشرح المعارف القديمة بعبارات جديدة، أو بضرب أمثلة من الواقع عليها، أو تطويرها ونقدها وإدخال بعض التعديلات عليها. لا ريب أن هذه المهمة ليست سهلة، ولكن لا بديل عن الاجتهاد وبذل ما يمكن بذله؛ والله المستعان.

أنماط المُعلِّمين:

المُعلِّم طبيب، ولكنه طبيب عقول ونفوس. وكما أن الذين يمارسون الطب ليسوا جميعًا مؤهلين، كذلك ليس كل من انتمى إلى مهنة التعليم كان جديرًا بها. وكما أن المرض قد يعتري الطبيب، فيجعل أداءه لعمله صعبًا، بل قد يقعده عنه، كذلك المُعلِّم يمر بأزمات عديدة، ويتعرض لانتكاسات ومشكلات تختلف في حدتها وشدتها من مُعلِّم إلى آخر. وإلى جانب هذا هناك المُعلِّم الناجح الذي يؤدي عمله على أفضل وجه ممكن، وينتزع إعجاب طلابه به. ولا أريد هنا أن أتحدث عن المُعلِّم المتميز، فقد ذكرنا الكثير من سماته وخصائصه، ولكن أريد أن أتحدث عن الأصناف الأخرى من المُعلِّمين؛ لكن أود قبل كل شيء أن ألفت النظر إلى أنه ليس هناك حدود فاصلة بين هذه الأصناف، وقد يتصف بعض المُعلِّمين الناجحين ببعض صفات المُعلِّمين المخفقين أو السيئين. وقد يتصف هؤلاء ببعض صفات أولئك.

وهذه إشارات سريعة في هذا الشأن:

1ـ المُعلِّم المهمل:

هو إنسان دخل مهنة التعليم على سبيل الخطأ، وعلاقته بها علاقة شكلية وسطحية؛ فأنت لا تكتشف وأنت تتحدث معه أن له أي اهتمامات بالثقافة أو

التعليم أو مستقبل الأجيال. ويظهر إهماله في تحضيره لدروسه، وفي تصحيحه لواجبات الطلاب وأوراق امتحاناتهم. ولا يلقي بالاً لشكواهم، ولا يفكر في أحوالهم.

2ـ المُعلِّم المستبد:

من سمات هذا الصنف من المُعلِّمين أنه يفتقر إلى الروح الرياضية والمرونة الذهنية. وهو قوي الإحساس بمركزه وسلطته. ويغلب عليه طابع الحرفية والتمسك بالأنظمة دون أن يأخذ بعين الاعتبار الظروف الخاصة التي يمر بها بعض الطلاب. والهم الذي يسيطر عليه هو إنهاء المناهج؛ فلا يعطي للثقافة العامة وتنمية شخصيات الطلاب ما تستحقه من عناية واهتمام. وهو إلى جانب هذا مستبد برأيه؛ لأنه لا يرى أن طلابه مؤهلون لأن يقفوا أمامه موقف الند من الند، مع أن أعظم المُعلِّمين قد يجد لدى طلابه آراء أو معلومات جيدة ليست في حوزته. ويقوم المُعلِّم المستبد بضبط إيقاع الحركة في الفصل أكثر مما ينبغي؛ لأنه يرى أي حركة أو كلمة من أي طالب على أنها شيء مخل بآداب التعلم ومخل بهيبة الأستاذ. وبالإضافة إلى كل ما سبق؛ فإن المُعلِّم المستبد لا يؤمن بالتحفيز والتشجيع كثيرًا، ويلجأ إلى العقاب بوصفه أداة لحمل الطلاب على تنفيذ ما يطلب منهم.

3ـ المُعلِّم الفوضوي:

يسير المُعلِّم الفوضوي في الاتجاه المعاكس للمُعلِّم المستبد، فهو لا يأبه بتوجيهات الإدارة، ولا يلتزم بالنظم المرعية، كما لا يهتم بإنهاء المناهج، ولا يكترث بما يسمى الأهداف التعليمية. وهو يحمل في نفسه نوعًا من الرفض للتقاليد التعليمية المعترف بها. إن الذي يسيطر عليه هو العلاقات الإنسانية مع

الطلاب. وحرصه على رضا طلابه ومسامرتهم يقع عنده في المرتبة الأولى. ولهذا فإن المحصلة العلمية التي يحصل عليها طلابه من وراء تدريسه تعد متواضعة.

4_ المُعلِّم العادي:

نمط المُعلِّم العادي هو النمط السائد في معظم المدارس. ومستوى ما هو عادي وغير عادي تحدده البيئة التعليمية العامة؛ فالمُعلِّم العادي في دولة متقدمة يختلف كثيرًا عن المُعلِّم العادي في بلد متخلف فقير. يحرص المُعلِّم العادي على إنهاء المناهج، كما يحرص على تنفيذ التعليمات العليا، لكنه مع هذا يتيح للطلاب نوعًا من المشاركة، كما يتيح فرصة محدودة لطرح الأسئلة. ومعرفته بمادته عادية، واهتمامه بتنمية شخصيته وتحسين فاعليته ضئيل أو دون المتوسط. وفي اعتقادي أن من شروط نهضة التعليم في أي بلد _ تسليط الضوء على هذه الأنماط وبلورة خصائصها على نحو أعمق، وإجراء بعض البحوث والمحاورات حولها، وتوضيح التعديلات التي ينبغي إدخالها على كل واحد منها، بالإضافة إلى بحث السبل التي تساعد كل صنف من هذه الأصناف الأربعة؛ على التخلص من العيوب التي تقعد به عن أن يكون واحدًا من المُعلِّمين الجيدين.

المُعلِّم بين الحقوق والواجبات:

من الواضح أن الناس يعوِّلون على المدارس أكثر من أي وقت مضى، فهم يطلبون منها الكثير والكثير. وهذا يرتب على المُعلِّم مهمات إضافية. كما أن هناك من وجه آخر شعورًا عامًّا لدى المُعلِّمين بأنهم لا ينالون حقوقهم المادية التي يستحقونها، ولا يلقون الاحترام والدعم الذي يؤملونه.

ولعلنا نستبين في هذه القضية الملامح الآتية:

1_ اهتمامات متبادلة:

التعليم بوصفه من القضايا الكبرى في حياة الأمم؛ فإنه ينطوي باســـتمرار

على مفارقات وتناقضات، كما ينطوي على الالتباس وسوء الفهم؛ إذ إن هناك دائمًا مشاعر ومواقف ومطالبات مختلفة. في المدارس أحاديث متواصلة وتأفف مستمر من تقصير البيوت في القيام بواجبها التربوي. وفي البيوت أحاديث مشابهة عن المُعلِّمين والمدارس. وبما أن البيوت والمدارس تشترك في العمل على جهاز واحد هو الطفل؛ فإن المتوقع أن يجور كل طرف على الآخر، ويطلب منه ما ليس عليه أن يقوم به، وأن يحمله مسؤولية ما لم يفعله، وهكذا سنة الله ـ تعالى ـ في الشركاء والخلطاء: {**وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ**} [ص: 24]. وإذا تأملت في أحاديث كل من الطرفين وجدت أنها تنطوي على شيء من الحق، وشيء من المبالغة، وشيء من الخطأ المحض. ولا أعتقد أننا سنتمكن في يوم من الأيام من إصدار أحكام واضحة وفاصلة في هذه المسألة. ولا بد من أن نرضى بالرؤية الإجمالية والأحكام التقريبية.

2ـ الفجوة بين الممكن والمطلوب:

أكثرنا على وعي بأن الكمال لا حدود له، وأنه ستظل هناك فجوة بين ما نحن عليه، وبين ما يمكن أن نفعله من جهة، وبين ما يمكن أن نفعله، وبين ما يجب أن نفعله من جهة أخرى.

وفي خضم هذه البينيات والفجوات؛ فإن من المألوف جدًا ألا تعرف الأسر ما الذي تريده تمامًا من المدارس، كما أن من المألوف أيضًا ألا تعرف المدارس ما الذي تريده من الأسر. ويصبح الأمر أكثر صعوبة في ظل عدم تواصل جيد بين الجهتين.

وسوف تستمر شكوى المُعلِّمين من أهالي الطلاب، وتستمر شكوى الأهالي من أداء المدارس. وذلك لا يعود إلى غموض المطلوب عمله فحسب، وإنما

يعود أيضًا إلى أن طموحات الناس هي دائمًا أكثر من إمكاناتهم؛ ولهذا كله فإن الاستمرار في تحسين الأداء التربوي في البيوت والمدارس من خلال الجهود الذاتية، ومن خلال التعاون بين الآباء والمُعلِّمين ـ قد يكون هو الشيء الوحيد الذي يمكن الحصول عليه من وراء التلاوم، وتحميل كل طرف مسؤولية القصور للطرف الآخر.

3ـ حقوق المُعلِّم من نوع مختلف:

إذا تحدثنا عن حقوق المُعلِّم؛ فلا ينبغي أن ننظر إليها على أنها شر لا بد منه، أو ننظر إليها كما ينظر دافع الضرائب لما يدفعه، فهو يبحث عن فرصة تمكنه من عدم الدفع؛ لأننا إذا فعلنا ذلك نسيء إلى التعليم، ونسيء إلى المكانة المرموقة التي ينبغي أن يحتلها المُعلِّم في أمة تحترم العلم، وتتعشقه وتضحي في سبيله.

إن ما يقدمه المُعلِّمون لأبنائنا هو أكبر بكثير من أن يُقوَّم بالمال، إنهم يقدمون نوعية جديدة من الحياة، ونوعية جديدة من بلورة الشخصية. ولذا فإننا إذ نلحّ على تحسين وضعية المُعلِّم، لا نقصد دفع ثمن لما يقدمه، وإنما نقصد التعبير عن الشكر والعرفان أولاً، ثم توفير بيئة تمكنه من القيام بعمله على نحو جيد ثانيًا.

إن الضغوط المادية تلاحق الموظفين عامة والمدرسين خاصة، وإن المُعلِّم من الموظفين القلائل الذين يحملون معهم بعض أعمالهم الوظيفية إلى بيوتهم. وهو ـحتى يستمر في العطاءـ بحاجة إلى وقت إضافي في المساء كي يُتَمِّم عمله فيما أحضره من المدرسة، وكي يثقف نفسه ويجدد خبراته. وإذا انصرف عن ذلك إلى العمل في أمور أخرى بسبب الحاجة؛ فإن ذلك يشكل نكسة لأدائه التعليمي. إن انشغال المُعلِّم بمشكلاته الشخصية وتدبير شؤون عيشه، وإحساسه بأنه لا ينال حقوقه المالية، أو أنه لا ينال المكانة الاجتماعية التي يستحقها... إن

ذلك لا يشجعه على أداء عمله على الوجه المطلوب، كما لا يشجع أصحاب المواهب والطموحات على الدخول في مهنة التعليم.

ويذكرون أن من أسباب جودة التعليم في اليابان أنه قادر على اجتذاب أفضل العناصر. وتُظهر استطلاعات الرأي هناك الاحترام الكبير الذي يكنه الشعب الياباني للمُعلِّم. ورواتب المُعلِّمين تفوق رواتب المهندسين والصيادلة. ولذا فإنه يتقدم لكل وظيفة شاغرة هناك خمسة من المُعلِّمين؛ مما يتيح للقائمين على التعليم اختيار أفضل الكفاءات من خريجي الجامعات وكليات التربية.

إن الدعم الذي يحتاجه المُعلِّمون منا ينقسم إلى قسمين: دعم مادي، ودعم معنوي:

الدعم المادي يتجسد أساسًا في زيادة الرواتب والمكافآتفي معظم البلدان إلى جانب مساعدة المُعلِّمين في توفير السكن وتوفير تعليم جامعي جيد لأبنائهم. ومن الواضح أن إعطاء الميزات المادية يجب أن يقترن بوضع معايير دقيقة في التوظيف لاختيار أفضل المتقدمين من حيث الكفاءة المهنية، ومن حيث الرغبة الحقيقية في العمل في هذه المهنة الشاقة. وإنما نقول ذلك لأن إعطاء الميزات دون تدقيق في الاختيار قد يؤدي إلى نتائج عكسية تمامًا؛ حيث يجتذب التعليم آنذاك أسوأ العناصر، والذين لم ينتسبوا إليه إلا رغبة في المزايا التي يوفرها.

وأعتقد أن على الأهالي من الآن فصاعدًا أن يساهموا في تحسين الأوضاع المادية للمُعلِّمين والمدارس عامة. ولا أرى أي غضاضة أو مشكلة في أن يدفع ولي أمر الطالب في بداية كل سنة دراسية مبلغًا من المال يعد مساهمة منه في دعم صندوق خاص بتحسين أوضاع المُعلِّمين، وفي تحسين التجهيزات المدرسية من معامل ومكتبات ومختبرات... وحين يفعل الأب ذلك فإنه يعد هو الرابح الأول؛ لأن ذلك سيساعد على توفير تعليم أرقى وأجود لولده.

أما الدعم المعنوي فيتمثل في تقدير المهمة التي يقوم بها المُعلِّمون، وتوكيد حب العلم وأهله في نفوس الناشئة، والتجاوب مع المُعلِّمين في متابعة الأولاد، والمساعدة على تحسين مستواهم من خلال الاهتمام بحل الواجبات، وحفظ الدروس وكتابة البحوث؛ بالإضافة إلى عدم الإصغاء إلى كل ما يقوله الأولاد في مُعلِّميهم من النقد والتجريح.

إن هذا وحده لا يكفي في تعزيز المهمة الكبرى التي يقوم بها المُعلِّمون، بل لا بد من الارتقاء ببرامج إعداد المُعلِّم من خلال تحسين مستوى التعليم في الكليات، ومن خلال التثقيف والتدريب المهني المستمر أثناء العمل. كما يجب من وجه آخر إشراك أكبر عدد ممكن من المُعلِّمين في تطوير مناهج التعليم ونظمه، فما داموا هم الذين ينفذون كل ذلك في الفصول؛ فإن نجاحه سيظل مرتبطًا باقتناعهم به وحماستهم له.

إن دور المُعلِّم في تنشئة الأجيال سوف يتعزز إذا ما كثر المهتمون بالتعليم من خارج الجهاز التعليمي. وإن من المسؤوليات الكبرى للإعلام المسموع والمرئي والمقروء: أن يوفر الأرضيات والأطر للحوار والنقاش الجاد والفعال بين أولياء أمور الطلاب والمُعلِّمين، وبين المسؤولين وعامة الناس؛ من أجل تشكيل نشاط مواز يدعم أنشطة المدارس التربوية والتثقيفية، وسوف تستفيد المدارس كثيرًا من ذلك النشاط.

4ـ مزيد من العطاء:

في مقابل اهتمام المجتمع بالمُعلِّم؛ فإن على المُعلِّم كذلك أن يهتم أكثر فأكثر بمهمته. ويستطيع كل مُعلِّم مهما كانت الظروف التي يعمل فيها ممتازة أن يجد المعاذير التي تقنعه بأنه مظلوم، وأن هناك ما يسوِّغ تقصيره، لكن تظل هناك شواهد ومقارنات تكشف حقائق الأمور؛ إذ إن هناك مدارس في داخل كل

دولة وخارجها تعيش ظروفًا صعبة، ومع هذا فإنها تقدم مستويات من الخريجين أعلى من مستويات خريجي مدارس كثيرة، تتمتع بإمكانات كبيرة. وذلك الفارق يعود إلى جهود الأساتذة على نحو أساسي.

وهناك إلى جانب هذا أشكال من الخلل في النظام المدرسي، وفي المستوى التعليمي ليس لها تفسير سوى عدم قيام المديرين والمدرسين بواجباتهم؛ فكثرة غياب المُعلِّمين والمُعلِّمات، وكثرة التأخر عن الحضور للمدرسة، والضعف الظاهر في معرفة بعض المُعلِّمين لقواعد الإملاء والنحو، ونسبة التفلت الأخلاقي لدى كثير من الطلاب على نحو لافت، وكَيْل الدرجات للطلاب من غير حساب؛ مما لا يعكس المستوى الحقيقي لهم، وشعور الطلاب بالإحباط من تدني مستوى مدرستهم، والاهتمام بالشكليات على حساب المضامين إلخ...؛ كل هذا مؤشرات تدل على خلل في قيام بعض المدرسين بواجباتهم الأساسية، وقد ذكرنا كثيرًا من تلك الواجبات، وسنذكر بعضها في الصفحات القادمة أيضًا، لكن ذلك سيكون محدود الفائدة ما لم يتم اتخاذ خطوات حثيثة على صعيد اختيار المُعلِّمين وتدريبهم، وعلى صعيد إيجاد آليات جديدة لتقويم أداء المدارس، وإيجاد فرصة لمشاركة الأهالي في ذلك.